طبائع الغربان

يقول الذين ربّوا الغراب وعلّموهُ النطق ان جعبة حيلهِ لا تنفد ومهارتهُ في تقليد اصوات الناس تفوق مهارة الببغاء . وهو يتعلّم دواماً تمّا يراهُ ويسمعهُ ويمرّن نفسهُ على ما يتعلمهُ حتى يتقنهُ ولا ينساهُ . وصوتهُ مثل صوت الناس حتى لقد يلتبس بهِ . روى بعضهم ان غراباً تعلّم الجمل التي تقال في التعليم العسكري وكان يمشي مع الضابط صاحبهِ ويشاركهُ في تعليم الجنود او يكرر ما يقولهُ حرفاً حرفاً حتى كان الجنود يحسبون صوتهُ صوت ضابطهم ويأتمرون بهِ

والغراب ودود الوف يقيم الزوج مع زوجهِ مدى العمر لا طلاق ولا ضرار بخلاف اكثر الطيور. وقد يتودّد الى غير نوعهِ تودّداً غير مفهوم المرى . روى بعضهم ان غراباً انثى عمّرت ستين عاماً وعاشت اكثر هذا العمر مع قنفذة عمياء ثم أُعطيت لرجل من المعتنين بدرس طبائع الطير فافتقدت القنفذة ولم تتعزّ عن فقدها الى ان أُتيت بطائر اليف من طيور البحر فانست بهِ وكانت اذا قُدّم اليها طعامها من اللحم تطعم بعضهُ في الارض حتى تأكلهُ اذا جاعت فلما انست بطائر البحر صارت تضيفهُ على هذا اللحم ولو كان منتناً وهو يتقزّز منهُ ثم يغطر الى اكلهِ بسبب لجاجتها حتى فسد عضمهُ وساءت صحتهُ واعتراهُ المرض. فحسبت ان واجب الصداقة يقضي عليها بان تحرم نفسها من لحمها المنتن وتطعمهُ اياهُ فزاد مرضهُ مرضاً ولا غرابة في ذلك لانهُ لم يعتد اكل الجيف مثل الغربان فامتنع عن الاكل بتاتاً ولما رأت منهُ ذلك يئست من سلامتهِ ولم تشأ ان تطول ايام بلواهُ فعجّلت عليهِ فتلتهُ ومزقت لحمهُ واكلت نصفهُ وطمرت النصف الثاني كأنها حسبت غاية الحب ان تمزج جسمهُ بجسمها . كما ان بعض الحيوانات تأكل صغارها اذا خافت عليها من الاعداء ولم تجد سبيلاً لنجاتها. وظلت هذه الغراب حيّة حتى صار عمرها سبعين سنة وبنت حينئذٍ عشّاً على الارض وباضت فيهِ ثم اكلت بيضها

والشائع ان الغربان تسرق الحلي وهذا صحيح لانها تخطف كل شيء لامع وتذهب بهِ الى عشها او مخبإها. روي ان طباخاً كان يرى ملاعقهُ تقلّ يوماً بعد يوم وهي من الفضة الصقيلة فراقبها يوماً واذا بغراب اتى خلسةً وخطف ملعقةً منها ومضى بها الى وكر فتبعهُ اليهِ فوجد فيهِ الملاعق المفقودة وغيرها تمّا خطفهُ الغراب من بيوت الجيران

وقال المستر بوزورث سميث الذي اعتمدنا عليهِ في نقل كثير تمّا تقدّم انهُ كان عندهُ غراب اليف كثير الاذى لا ينجو حيوان من شرهِ لقي منهُ الحمام والدجاج والبط الامرّين وكان يهاب الديوك الاّ اذا وقفت تتهارش فانهُ يأمن شرها حينئذٍ ويهجم عليها ويعمل منقارهُ في اذنابها

ثم ينعق نعيق الظافر المسرور وكان لهُ مخابئ كثيرة في اماكن مختلفة يخبئ فيها العيدان والازوار والمسامير والكتان والنقود . وبعض هذه المخابئ لم يُكشف الاَّ بعد موتهِ وجدها غراب آخر قام مقامهُ فاستولى على تركتهِ كأنهُ الوريث الشرعي لهُ . وكان الغراب الاول لصًّا من الطبقة الاولى اذا رأى بستانيًّا يزرع بزرة ويهتم بطمرها واخفائها رصد لهُ الى ان يبعد عنها ثم اتى واحتفرها واكلها او اخذها الى وكرهِ . واذا رأى فلاحًا اعتنى بزرع بعض الحبوب غافلهُ واستخرجها وجمعها في حفرة واحدة . واذا رأى واحدًا من المتأنقين وقع كفٌّ من يدهِ خطفهُ وهرب بهِ ومزقهُ تمزيقًا كأنهُ يؤنب الرجال على لبس الكفوف كالنساء

لا يخلو بلد من رجل ظريف او مهرّج يُضحك الناس او يضحكون عليهِ وكان في البلد الذي فيهِ هذا الغراب رجل من هذا القبيل فكان الغراب يعرفهُ ويتبعهُ وينقر ساقيهِ كأنهُ يداعبهُ . وكان هذا شأنهُ كلما وجد ولدًا او رجلاً سخيف العقل فانهُ كان يتبعهُ ويحتال عليهِ كأنهُ من اترابهِ او ممَّن تجوز عليهم حيَل الغربان . ولم يكن يعبأ بالبرد ولا بالمطر والثلج بل كثيرًا ما كان يتمرَّغ في الثلج كما تتمرَّغ الدواب في التراب . وقضى نحبهُ غرقًا فانهُ وقع في برميل فيهِ من العقار الذي تدهن بهِ الخنازير فتعذَّرت عليهِ النجاة

وقال المستر سمث ايضًا انهُ اقتنى غرابًا آخر ولم يكن حيث يستطيع ان يطلق سبيلهُ فوضعهُ في قفص كبير قُنع عن الاذى ولكن انمح لهُ مجال النطق فتعلَّم كثيرًا من الكلمات والجمل التي كان يسمعها وصار يتلوها على اساليب شتَّى بين ترخيم الصوت وتخشينهِ وكان يقلِّد الناس في ضحكهم . قال المستر سمث وأُصيبت بسعال شديد فصار يسعل مثلي حتى كان المارُّون يظنون انهُ سعال البستاني ويلومونني لانني اتركهُ مصابًا بهذا السعال ولا اداويهِ . وكان ماهرًا في تلقي ما يرمى اليهِ فاذا رماهُ الاولاد بالاثمار الصغيرة امسكها كلها من الهواء من غير ان تقع واحدة منها . واذا اطعمتهُ اشياء كثيرة دفعةً واحدة اخذها كلها منك غير متمهل واخفاها في فكهِ الاسفل حتى يبرز كالجراب ثم ينظر اليك مستفهمًا كأنهُ يقول احزر اين وضعتها ثم يخرجها من جرابهِ ويخفيها في اماكن اخرى في قفصهِ تحت الرمل او تحت الحجارة ويستخرجها ويخفيها مرة اخرى كما يفعل الاولاد وهم يلعبون . واذا تُرك مفتاح قفصهِ في الباب سهوًا خطفهُ واختفاهُ ووقف ينظر الى حيرتك وانت تفتش عنهُ

والناس على طرفي نقيض من حيث آرائهم في الغراب فبعضهم يكرمهُ اكرامًا دينيًّا ويفضلهُ على الطيور اجمع وبعضهم يقول انهُ اشأم الطيور واقبحها . فكان الرومانيون يقولون انهُ اذا طار عن يسار انسان انبأ بالشر وجلبهُ عليهِ واذا طار فوق بيت فلا بدَّ من ان يموت واحد

فيهِ . وانهُ يسبق المقاتلين الى دار الحرب ينتظر وقوع القتلى واذا وقع بهِ اذى انتقم ممَّن اذاهُ ولو بعد موتهِ . ويقول اداي اسوج ان الغربان التي تعيق في المستنقعات ليلاً هي ارواح القتلى الذين قُتلوا غيلة ولذلك حمي الغراب من الاذى في كثير من البلدان الشمالية . لكن بعض الذين لا يستحلون قتلهُ رميًا بالرصاص يطرحون لهُ البيض المسموم بالاستركنين حتى يأكلهُ ويموت سمًّا زاعمين انهم لم يقتلوهُ بل هو قتل نفسهُ . وكثيرون من الانكليز يعتقدون ان نجاحهم في الدنيا نتج عن حمايتهم لغراب عشش في بستانهم وانهُ اذا قتل قصدًا فلا بدَّ من ان يموت واحد من العائلة على اثر ذلك

ويقال ان الغراب يعمّر مئة سنة الى ثلثمئة . هذا كان رأي الاقدمين مثل بلينيوس وشيشرون وارستوفانيس وهوراشيوس واوفيد واوسونيوس . والظاهر انهُ لا يخلو من الصحة فقد تقدَّم ان غرابًا اهليًّا عمَّر سبعين عامًا

هذه خلاصة ما قالهُ المتكلمون في طبائع الحيوان من الاوربيين اما العرب فقال الجاحظ شيخهم انهم يسمون الغراب ابن داية لانهُ اذا وجد دبرة اي قرحة في ظهر البعير سقط عليها ونقرهُ وعقرهُ حتى يبلغ الدابات ومنهُ قول عنترة

فلو كنت معذورًا بنصرك طيَّرت صقوري غربان البعير المقيَّدِ

ضرب ذلك مثلاً للبعير ذي الدبر اذا وقعت عليهِ الغربان . واذا كان في ظهر البعير دبرة غرزوا في سنامهِ اما قوادم نسر اسود واما خرقة سوداء لتفزع الغربان منهُ ولا تسقط عليهِ . قال الشاعر

كأنها ريشة في غارب جرب في حيثما ضربتها الريح ينصرفُ

ويقال ارض لا يطير غرابها اي خصيبة حتى بلغ من خصبها انهُ اذا دخلها الغراب لم يخرج منها لان كل شيء يريدهُ فيها قال النابغة

ولرهط صوات وفرّ سورة في المجد ليس غرابها بمطار

ويقال وجد فلان ثمرة الغراب كأنهُ يتبع اطيب الثمر . وقالوا ان الغراب ينقر العيون وفي ذلك يقول الشاعر

اتوعد اسرتي وتركت حجرًا يريغ سواد عينيهِ الغراب

وان كل غراب يقال لهُ غراب البين اذا ارادوا بهِ الشؤم لسقوطهِ في مواضع منازلهم اذا بانوا (اي بعدوا) عنها

ويقال نعق الغراب نعيقًا ونعب نعيبًا فاذا مرَّت عليهِ السنون الكثيرة وغلظ صوتهُ قيل شحج شحيجًا وقال ذو الرمَّة

ومُستَنْجحات بالفراق كأنّهـا مثاكيل من صيابة النوب نوّحُ

والنوب اهل النوبة

وعلل الجاحظ تطيُّر العرب من الغراب بقولهِ " واصل التطيُّر انما كان من الطير اذا مرَّ بارحًا او سانحًا (اي عن اليمين او عن اليسار) او رآهُ المتطير يتفلَّى او ينتف ثم صاروا اذا عاينوا الاعور من الناس او البهائم او الاعضب او الابتر زجروا عند ذلك وتطيروا كما تطيروا من الطير فكان زجر الطير هو الاصل منهُ اشتقوا التطيُّر ثم استعملوا ذلك في كل شيء . والغراب لسوادهِ ان كان اسود ولاختلاف لونهِ ان كان ابقع ولانهُ غريب يقطع اليهم ولانهُ لا يوجد في موضع خيامهم يتقمم الاَّ عند مباينتهم لمساكنهم ومزايلتهم لدورهم ولانهُ ليس شيء من الطير اشد على ذوات الدير من ابلهم من الغربان ولانهُ حديد البصر قالوا عند خوفهم من عينيهِ الاعور كما قالوا غرابًا لاغترابهِ وغراب ابي لانهُ عند بينونتهم يوجد في دورهم

قال ولايمان العرب بباب الطيرة عقدوا الرتائم وعشَّروا (اي نهقوا عشر مرات) اذا دخلوا القرى تعشير الحمار . والغراب اكثر من جميع ما يتطيَّر بهِ في باب الشؤم . لكنهم لم يكونوا في ذلك سواء بل نفى بعضهم التطيُّر قال سلامة بن جندل

ومن تعرَّض للغربان يزجرها على سلامتهِ لا بدَّ مشؤوم

وقال غيرهُ

يا ايها المزمع ثمَّ انثنى لا يثنك الحادي ولا الناعجُ
بين الفتى يسعى ويُسعَى لهُ تاح لهُ من امرهِ ذانجُ

وزعم الاصمعي ان النابغة خرج مع زيان بن يسار يريدان الغزو فبينما هما يريدان الرحلة اذ نظر النابغة واذا على ثوبهِ جرادة فتطيَّر فلما رجع زيان من تلك الغزوة سالمًا غانمًا قال

تخبر طيرةً فيها زيادٌ لتخبرهُ وما فيها خبيرُ
اذلم كأن لقمان بن عاد اشار لهُ بحكمتهِ مشيرُ
تعلم انهُ لا طير الاَّ على متطير وهو الثبورُ
بلى شيء يوافق بعض شيء واحيانًا وباطلهُ كثيرُ

وكان زيان هذا من دهاة العرب وساداتهم فقال ان الذي يجدونهُ انما هو شيء من طريق الاتفاق

وقال الجاحظ اخبرني ابو اسحق ابرهيم بن سيَّار النظام قال جعتُ حتى اكلت الطين وما صرت كذلك حتى قلَّبت قلبي اتذكر هل من رجل اصيب عندهُ غداء او عشاء فما قدرت

عليهِ وكان عليَّ جبة وقميصان فنزعت القميص الاسفل فبعثهُ بدريهمات وقصدت الى فرضة الاهواز اريد قصبة الاهواز وما اعرف بها احداً وما كان ذلك الاَّ شيئاً اخرجهُ الضجر وبعض التعرُّض . فرأيت الفرضة فلم أُصِب فيها سفينة فتطيَّرتُ من ذلك ثم رأيت سفينة في صدرها خرق وشخم فتطيرت من ذلك ايضاً واذا فيها حمولة فقلت للملاح تحملني قال نعم قلت ما اسمك قال داود وهو بالفارسيَّة الشيطان فتطيَّرت من ذلك . ثم ركبت معهُ تضنك الشمال وجهي وينشر الليل الصقيع على رأسي فلما قربنا من الفرضة صحت يا حمَّال ومعي لحاف سمل ومضربة خلق وبعض ما لا بُدَّ لمثلي منهُ فكان اول حمال اجابني اعور فقلت لبقار كان واقفاً بكم تكري ثورك هذا الى الخان فلما ادناهُ من متاعي اذا الثور اعضب (مكسور القرن) فازددتُ طيرةً الى طيرة فقلت في نفسي الرجوع اسلم لي ثم ذكرت حاجتي الى اكل الطين فقلت ومن لي بالموت فلما صرت بالخان وانا جالس فيهِ ومتاعي بين يديَّ وانا اقول ان انا خلَّفتهُ في الخان وليس عندهُ من يحفظهُ فُشَّ الباب ومُزِق وان جلستُ احفظهُ لم يكن لمجيئي الى الاهواز وجه . فبينا انا جالس اذ سمعت قرع الباب قلتُ من هذا عافاك الله . قال رجل يريدك . قلت ومن انا . قال انت ابرهيم . فقلت ومن ابرهيم . قال النظام . قلت هذا خنَّاق او عدو او رسول سلطان . ثم اني تحاملت وفتحت الباب فقال " ارسلني اليك ابرهيم بن عبد العزيز يقول نحن وان كنا اختلفنا في بعض المقالة فانَّا قد نرجع بعد ذلك الى حقوق الاخلاق الحريَّة وقد رأيتك حين مررت على حال كرهتها منك وما خبرني عنك الاَّ بعض من كان معي وقال ينبغي ان يكون قد نزعتهُ حاجة فان شئتَ فاقمْ بمكانك شهراً او شهرين فعسى ان نبعث اليك ببعض مايكفيك زمناً من دهرك وان اشتهيت الرجوع فهذه ثلاثون مثقالاً فخذها وانصرف وانت احقُّ مَن عذر " . فهجم والله عليَّ امرٌ كاد ينقضي اما واحدة فاني لم اكن ملكت قبل ذلك ثلاثين ديناراً في جميع دهري . والثانية انهُ لم يطل مقامي ولا غيبتي عن وطني وعن اصحابي الذين هم على حال اشكل بي . والثالثة ما تبيَّن لي من ان الطيرة باطلة وذلك انهُ قد تتابع عليَّ منها ضروب والواحدة منها كانت عندهم معطبة

الاَّ ان جمهور العرب كان يعتقد الطيرة مثل اليونان والرومان قال الدميري في حياة الحيوان الكبرى قال ابو الفرج المعافي بن زكريا في كتاب الجليس والانيس كنا نجالس في حضرة القاضي ابي الحسن فجئنا على العادة فجلسنا عند بابهِ واذا اعرابي جالس كانت لهُ حاجة اذ وقع غراب على نخلة في الدار فصرخ ثم طار فقال الاعرابي ان هذا الغراب يقول ان صاحب هذه الدار يموت بعد سبعة ايام . قال فزجرناهُ فقام وانصرف . ثم خرج الاذن من القاضي

الينا فدخلنا فوجدناهُ متغير اللون مغتمًّا فقلنا لهُ ما الخبر قال رأيت البارحة في النوم شخصًا يقول

منازل آل عبَّاد بن زيدٍ على اهليكِ والنعمَ السلامُ

وقد ضاق صدري لذلك . فدعونا لهُ وانصرفنا فلما كان في اليوم السابع من ذلك اليوم دُفن . قال القاضي ابو الطيب الطبري سمعتُ هذه الحكاية من لفظ شيخنا ابي الفرج المذكور

وقال يعقوب بن السكيت كان اميَّة بن ابي الصلت في بعض الايام يشرب فجاء غراب فنعب نعبةً فقال لهُ امية بفيك التراب ثم نعب اخرى فقال لهُ اميَّة بفيك التراب ثم اقبل على اصحابهِ فقال اتدرون ما يقول هذا الغراب زعم اني اشرب هذه الكاس فاموت واشارة ذلك انهُ يذهب الى هذا الكوم فيبتلع عظمًا فيموت . قال فذهب الغراب الى الكوم فابتلع عظمًا فمات ثم شرب اميَّة الكاس فمات من حينهِ

والحكايتان من اقاصيص العرب واميَّة بن ابي الصلت شاعر مسيحي مشهور من فحول شعراء الجاهلية ويقال انهُ مرض قبل موتهِ ومُتم يقول

ان تغفر اللهمَّ فاغفر جمًّا واي عبدٍ لك لا المَّا

ثم قال

كل عيش وان تطاول دهرًا منتهى امرهِ الى ان يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في رؤوس الجبال ارعى الوعولا
إجعلِ الموت نصب عينيك واحذرْ غَوْلة الدهر ان للدهر غُولا

وقال الجاحظ وبالبصرة من شان الغربان ضروب من العجب لو كان ذلك بمصر او ببعض الشامات لكان عندهم من اجود الطلسم وذلك ان الغربان تقطع الينا في الخريف فترى النخل ونصفها مصرومة (اي مقطوعة عناقيدها) وعلى كل نخلة عدد كثير من الغربان وليس منها شيء يقرب نخلة واحدة من النخل الذي لم يُصرَم ولو لم يبقَ عليها الَّا عذق (عنقود) واحد . وترى على كل نخلة مصرومة الغربان الكثيرة ولا ترى على التي تليها غرابًا واحدًا حتى اذا صرموا ما عليها تسابقت الغربان الى ما سقط من التمر في جوف الليف واصول الكرب تستخرجهُ كما يستخرج الشاك الشوكة

ومنقار الغراب معول وهو شديد النقر يصل الى الكمأة المدفونة في الارض بنقرة واحدة وهو ابصر بمواضع الكمأة من اعرابي يطلبها . والاعرابي يحتاج الى ان يرى ما فوقها من الارض فيهِ بعض الانتفاخ والانصداع وما يحتاج الغراب الى دليل

والغربان تسقط في العشاري تلتمس الطعم ولا تزال كذلك فاذا غابت الشمس نهضت الى

اوكارها معاً وقلما تختلط البقع بالسود . ومنها اجناس كثيرة عظام كامثال الحدإ السود ومنها صغار وفي منافيرها اختلاف في الالوان والصور . ومنها غربان تحكي كل شيء سمعتهُ حتى انها في ذلك اعجب من الببغاء . وما اكثر ما يختلف (يتردد) منها عندنا في البصرة في الصيف فاذا جاء القيظ قلَّت جدًّا واكثر المختلفات من البُقَع فاذا جاء الخريف رجعت الى البساتين لتنال مما يسقط من التمر في كرب النخل وفي الارض ولا تقرب النخلة اذا كان عليها عذق واحد . واكثر هذه الغربان سود ولا تكاد ترى فيهنَّ البُقَع . انتهى كلام الجاحظ . ولم نحقق ما ذكرهُ من امر الغربان والنخل فان كان احد من القراء يعلم ما يثبتهُ او ينفيهِ فليتحفنا بهِ

وقال القزويني في كتابهِ عجائب المخلوقات " الغراب طائر كثير الاسفار بعيد التطواف اول ما يطير يسرع الطيران بعد ابتلاج الفجر يحبُّ الجوز يجمع منهُ كثيرًا فيدفن للذخيرة ويجتمع على كل الحيوانات الكبار بالبادية كالجمل والفرس وكذا الآدمي ويقصد قلع عينيها ولا يمتنع بالدفع والضرب لشدَّة جوعهِ . وينقر ظهر السلحفاة فيأكلها . والبعير اذا عُقِر وحدث في ظهرهِ لحم ميت فلا بدَّ من اخذ اللحم الميت من ظهرهِ فيرسلونهُ الى الصحراء لتجتمع عليهِ الغربان وتقلع اللحم الميت من ظهرهِ . وقال خلَف الاحمر رأيت فرخ الغراب فلم ارَ صورةً اقبح منهُ ولا اقذر ولا انتن رأيتُ رأسًا كبيرًا ومنقارًا طويلاً وذلك مع صغر البدن وقصر الجناح وهو امرط منتن الريح . ومن الغربان ما يأتي بالفاظ فصيحة افصح من الببغاء"

وزاد الدميري في حياة الحيوان الكبرى في مشي الغراب قول الشاعر

" ان الغراب وكان يمشي مشية فيما مضى من سالف الاجيالِ
حسد القطاة ورام يمشي مشيها فاصابهُ ضرب من العُقَّالِ
فاضلَّ مشيتهُ واخطأ مشيها فلذاك سموهُ ابا المرقالِ

" وهو اصناف الغداف والزاغ والاكل وغراب الزرع والاورق (اي الرمادي) وهذا الصنف يحكي جميع ما يسمعهُ . والغراب الاعصم عزيز الوجود قالت العرب اعزُّ من الغراب الاعصم اي الاحمر المنقار والرجلين وغراب الليل وهو غراب ترك اخلاق الغربان وتشبَّه باخلاق البوم وقال ارسطوطاليس في النعوت الغربان اربعة اجناس اسود حالك وابلق ومطرف بياض لطيف الجرم يأكل الحب واسود طاووسي برَّاق الريش ورجلاهُ كلون المرجان يعرف بالزاغ . وفيهِ حذر شديد وتنافر . والغداف يقاتل البوم ويخطف بيضها ويأكلهُ " . ويلي ذلك كلام كثير منقول اكثرهُ عن الجاحظ

هذا ما عنَّ لنا جمعهُ من اوصاف هذا الطائر وقد اقتصرنا على ما تلذ مطالعتهُ